تحقيق

ميشال كرم
Michelkaram2@hotmail.com

الرئيس شهاب مكث فيها 6 سنوات وشكا من بردها القارس

قلعة راشيا: شاهدة على إستقلال اللبنانيين

تكتسب قلعة راشيا الصامدة على ارتفاع 1350 مترا في البقاع الغربي رمزية مهمة بموقعها وزمانها واحداثها. فهي تنهض شاهدة على مراحل نضال متعددة، وبخاصة على حقبة العبور الى الاستقلال اللبناني بشكله النهائي، وتطلّ بتباه على شيخ الجبال وقمته المقدسة حرمون حيث يستعيد ابناؤها السير اليها على خطى المسيح تجليا وتعظيما للسلام والمحبة



قلعة راشيا: قلعة الاستقلال او حصن 22 تشرين.

قبل 22 تشرين الثاني 1943، كانت قلعة راشيا بالنسبة الى اللبنانيين معلما على خريطة المواقع الاثرية. لكن اعتقال رئيس الجمهورية بشارة الخوري ورئيس الحكومة رياض الصلح والزعماء الوطنيين كميل شمعون وعادل عسيران وعبد الحميد كرامي وسليم تقلا وحجزهم داخل اقبيتها 11 يوما، حوّلها الى صرح وطني بامتياز، عرف بقلعة الاستقلال او حصن 22 تشرين الثاني، وبات بعد الاضراب العام الذي عمّ مختلف المناطق للافراج عن المعتقلين سمة تعبّر عن تمسك جميع اللبنانيين بصيغة العيش المشترك، ودلالة على اهمية ارادتهم الجامعة ووحدتهم التي كانت قبل 76 عاما "خبطة قدمهم ع الارض هدّارة... ومسموعة".

صاغ منصور الرحباني حكاية هذه القلعة اغنية غدت بها رمزا للعزة والعنفوان، بعدما نفخ في عزائم الصامدين والمقاومين الرجاء بلمعة الحرية التي لا بد من ان تنتصر مهما طال مشوارها: "قالوا حبسنا الحرية بقلعة راشيا، لكن نحن ما انحبسنا، صرنا الدولة نحن، والدولة بدها تقاوم، تترد العدوان ونحرر ارادتنا وكل شبر من لبنان".

> **صاغ منصور الرحباني حكايتها اغنية غدت بها رمزا للعنفوان**

صارت القلعة في الذاكرة الوطنية بعد هذه الحقبة المفصلية من تاريخ لبنان الحديث، وتغص سنويا بالزوار للتعرف على معالمها وبخاصة الغرف التي سجن فيها الجيش الفرنسي القادة الوطنيين الذين كانت قد تبلورت لديهم فكرة الاستقلال وتحولت الى ما سمي الميثاق الوطني اللبناني. ودرجت العادة ان يؤمها في 22 تشرين الثاني وفق تقليد سنوي ممثلون عن رئيس الجمهورية ورئيسي مجلسي النواب والوزراء ويتفقدون مواقع الاعتقال، ويدونون كلمات في سجلها الذهبي، كما خصّها كل من الرئيسين شارل حلو عام 1966 وميشال سليمان عام 2011 بزيارة رسمية، لتسليط الضوء على هذا المعلم الوطني التاريخي وما ينطوي عليه من مدلولات مهمة حول استقلال محصن بالوحدة الوطنية.

وعبّر الرئيس الخوري في مذكراته عن هذه الوحدة حين اشار الى ان اللبنانيين احتفلوا بهذا الحدث الجلل على طريقتهم وراحوا في كل المدن والبلدات ينشدون الوحدة الوطنية، وما ان "اطلّت سيارتنا على ساحة راشيا حتى قرعت الاجراس وعلا الهتاف ولعلع صوت بنادق "المعدّل" في الجو وهجم الاهالي دروزا ومسيحيين بكوفياتهم البيض يسدون علينا الطريق للتحية"، بعدما كانت فترة الاعتقال قد جعلت لبنان يغلي بالتظاهرات الشعبية التي تصدت لقوات الانتداب الفرنسي.

عكس اصدار مجموعة من الطوابع والعملات والميداليات اهمية هذا الحدث في الحياة الوطنية، وصدرت مجموعة طوابع الاستقلال الاولى في العام 1944 وحملت رسما للقلعة، وتوشحت المجموعة الثانية بخط رئيس الجمهورية بشارة الخوري بعبارة 22 تشرين الثاني 1943. كما نقشت على وجه اول وسام فخري يحتفي بالاستقلال شارة الارزة والقلعة، وهو عبارة عن ميدالية فضية استحدثت بقانون صدر في 21 تشرين الثاني 1945، وعرفت باسم "ميدالية الجهاد الوطني"، وحرص الرئيس خوري سنتذاك على تعليقها شخصيا على صدور عدد من الشخصيات الوطنية. لم يقتصر تخليد اسم القلعة على الطوابع والميداليات، فاصدر مصرف لبنان اول ورقة نقدية لبنانية تذكارية من فئة 50000 ليرة، عليها صورة للقلعة والعلم الذي رسمه النواب بايديهم في العام 1943، وذلك في مناسبة مرور 70 سنة على استقلال لبنان.

غرفة اعتقال الرئيس بشارة الخوري.



غرفة اعتقال الرئيس رياض الصلح.



راشيا من القلعة.

لكن الرئيس فؤاد شهاب الذي كان الاكثر اصدارا لطوابع الاستقلال التي عكست اشياء من طابعه، هو من المسؤولين الاكثر التصاقا بالقلعة وتاريخها. إذ عين قائدا لثكنتها في 7 تشرين الثاني 1930 ومكث فيها لغاية 5 شباط 1936 اي ست سنوات. ويذكر الزميل نقولا ناصيف في كتابه "جمهورية فؤاد شهاب" ان اللواء فؤاد شهاب تسلم قيادة مركز راشيا الوادي عندما كان برتبة نقيب، وكان بامرته حينها جنود لبنانيون وفرنسيون، لكنه شكا كثيرا من البرد القارس الذي كابده في القلعة الاثرية، وحفرت في ذاكرته بضع حوادث منها انه في موقع راشيا توطدت علاقته برفيق دفعته في المدرسة الحربية حسني الزعيم.

كما كان الجنرال غورو قائدا لموقع راشيا عام 1919، وقد سكن في البلدة في المنزل الذي يملكه اليوم المهندس فايز سيور. وهذا الموقع لا يزال منذ عام 1964 في عهدة الجيش اللبناني لغاية اليوم باستثناء القسم السياحي من القلعة بعد ان كان سابقا مركزا للدرك اثر جلاء الجيش الفرنسي سنة 1946.

فالقلعة التي شهدت محطات تشبه تاريخ معظم القلاع اللبنانية في استراتيجيتها العسكرية وتعاقب الحضارات عليها، تنفرد باحتضانها رجالات الاستقلال حتى اضحت معلما مرتبطا بذاكرة اللبنانيين النضاليين.

فالجزء المسمى بجناح الاستقلال في القسم العلوي يتضمن الغرف التي بنيت عام 1914 والتي تحولت ابان الانتداب الفرنسي الى زنزانات للتوقيف، وقاعة مستطيلة مخصصة لقيادة العمليات العسكرية، وباحة داخلية تحمل معالم كنيسة مكشوفة على الخارج عبر قناطر نقش على احداها اشارة الصليب، وتؤدي الى شرفة تطل على معظم بلدات قضاء راشيا وقسم من البقاع الغربي. كما بنى الفرنسيون ◄

◄ السور الشرقي للقلعة بعد دخولهم اليها مستخدمين حجارة المنازل المحيطة بها التي لا تزال شاهدا على ذلك حيث اسماء بعض اصحاب المنازل موجودة على مدخل القسم الشمالي من القلعة.

ترتفع القلعة فوق بهو فسيح بناه الصليبيون في القرن الحادي عشر من عقود حجرية مرصوفة على شكل قناطر واقواس، ويتألف من قاعة كبيرة ومخزن من الجهة الشمالية الشرقية، مع برج في الجهة الجنوبية الغربية، وهو يعدّ اعلى نقطة في القلعة، ويمكن منه مراقبة طريق قوافل التجار القادمين من فلسطين نحو بلاد الشام، وحماية مواكب الحجاج والمسافرين عبر وادي التيم من دمشق الى القدس، اضافة الى حفر آبار صخرية لا يزال واحد منها صالحا للاستعمال، ونحت اربعة سراديب كان احدها بمسافة 1500 متر، ويستعمل لتأمين التموين في حالة الحصار، ولم يتم الكشف سوى عن ثلاثة منها.

وتتضمن القلعة ابنية وآثارا شهابية تعود الى عام 1370، حين تولى الامير ابوبكر شهاب ولاية حاصبيا، فبنى له منزلا مجاورا للبرج الصليبي جعله مقرا لاستراحته الصيفية، وقد شيده بحجارة قدّت من مقلع البلدة في محلة "المنشار"، وازدان طابقه العلوي بالقناطر والمقرنصات ذات الطابع العربي، ويعلو مدخله لوحة تؤرخ شعرا لتاريخ بنائه، فيما اقبيته السفلى تحولت الى متحف عسكري لا يفتح الا في بعض المناسبات، ويحوي اسلحة حربية من ايام العثمانيين والفرنسيين والحربين العالميتين الاولى والثانية. في تلك الفترة اهتم الشهابيون بالقلعة وبنوا مدخلها وسورها وقناطرها من الجهة الجنوبية الغربية.

ترتفع القلعة بالقرب من البرج وتمتد على مساحة 8500 متر مربع، في موقع تحيط به المنحدرات من جهاته الثلاث، وتشبه بجدرانها السميكة واقبيتها ودهاليزها المتعددة قلعة الشقيف الصليبية، ويتماثل ايوان قناطرها في جهتها الجنوبية مع قناطر قصر بيت الدين، ولا تزال على حالها

منزل الامير ابوبكر شهاب المجاور للبرج يزدان بالقناطر والمقرنصات

مجموعة طوابع وعملات وميداليات عكست اهمية هذا الحدث الوطني

من الخارج. لكن جدرانها التي عانت من تصدعات من الداخل قد جرى ترميمها وابراز احجارها وتكحيلها.

ويعتقد ان القلعة اتخذت اسمها من لفظة "راش - أيا"، و"أيا" هو إله المياه العذبة الجوفية عند القدماء. بالاستناد الى منطق تاريخ التعاقب الحضاري للمجموعات البشرية، فمن المرجح ان يكون هذا المعبد في محيط البرج الصليبي في القلعة حيث تكثر وجود آبار رومانية، وهذا الاستنتاج يحتم استكمال المسوحات الاثرية.

وشهدت القلعة احداثا مهمة ابرزها المعركة الشهيرة التي جرت في 22 تشرين الثاني 1925 حين اقتحم المقاتلون في الثورة السورية الكبرى بقيادة سلطان باشا الاطرش اسوار القلعة لتحريرها من الحامية الفرنسية، وتمكنوا بعد ثلاثة ايام من ان يحتلوا قسما منها، وكانت الشرارة الاولى للثورة قد انطلقت من جبل الدروز لمقاومة الانتداب ولم تهدأ الا في سنة 1927، وادت تلك المعركة الى نكبة كبرى حلت براشيا التي احرقت بيوتها وتشرد عدد كبير من اهاليها، كما تعرضت بلدة العقبة المجاورة الى تدمير شبه كامل، وتؤرخ لوحتان رخاميتان تنتصبان في الساحة العامة للقلعة لذلك الحدث التاريخي النضالي. فحملت احداها اسماء مئة شهيد من الثوار، والثانية 159 من الفرنسيين. وتشكل هاتان الجداريتان ظاهرة نادرة من حيث وجودهما في مكان واحد. اذ ان الفرنسيين كانوا قد اقاموا هذا النصب التذكاري قبل جلاء قواتهم عام 1946، ولم يزله اللبنانيون بل عمدوا الى رفع نصب لشهدائهم في تلك الحقبة، فتجاور اعداء الامس بعد مماتهم.

وعلقت على جدران جناح الاستقلال صور بالاسود والابيض عن رد فعل الفرنسيين وانتقامهم من اهالي راشيا الوادي باحراق بيوتهم ومزروعاتهم والقضاء على ماشيتهم وابقارهم، الى جانب صور عن بعض الاحتفالات التي كانت تقام احياء لمناسبة الاستقلال. وخصّ الدكتور ابراهيم مهنا "الامن العام" بصورة التقطت في العام 1925 لحيّ الميدان وحارة فوقا، وتظهر فيها آثار النكبة التي منيت بها البلدة والتي لم يسلم منها الا كنيسة السيدة للروم الكاثوليك في حيّ الميدان، وكنيسة مار نقولا للروم الارثوذكس في حارة فوقا.

وادرجت القلعة عام 1997 على لائحة الاماكن السياحية في لبنان وانارتها وزارة السياحة، وقامت مؤسسة الوليد بن طلال في اشراف الوزيرة السابقة ليلى الصلح حماده بترميم جناح الاستقلال في خطوة تكريمية لوالدها رياض الصلح الذي كان مسجونا في احدى غرفه.

راشيا التي شاء التاريخ ان تكون مسرحا للاحداث المهمة والنضال من اجل الحرية، الحقت مع غيرها من المدن والبلدات بلبنان الكبير الذي اعلنه الجنرال غورو في الاول من ايلول 1920. ويشير المؤرخ فيليب حتي في كتابه "تاريخ لبنان" الى ان المدن والمقاطعات الداخلية مثل البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا ومرجعيون كانت سابقا جزءا من لبنان تاريخيا وجغرافيا، وكان يحكمها احيانا المعنيون وتارة اخرى الشهابيون. من بينهم الامير بشير الشهابي من بلدة راشيا الذي انتخب عام 1697 بالاجماع حاكما على لبنان.

هذه القلعة التي تنافست عليها جيوش متعددة، لا يتنافس على زيارتها الا طلاب المدارس في ذكرى الاستقلال، رغم انها واحدة من اهم الاماكن الاثرية التي تروي حكاية شعب ناضل من اجل الحرية والاستقلال.

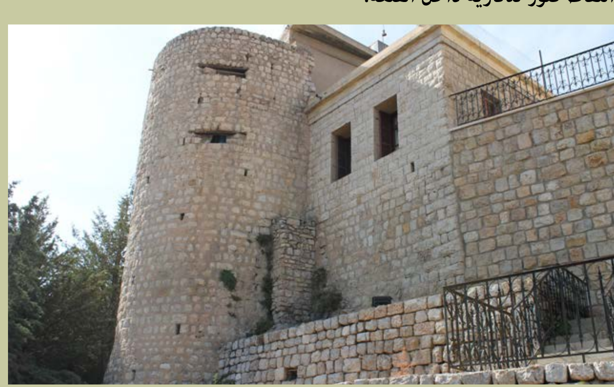

الباحة الداخلية التي تحولت الى كنيسة في عهد الفرنسيين.

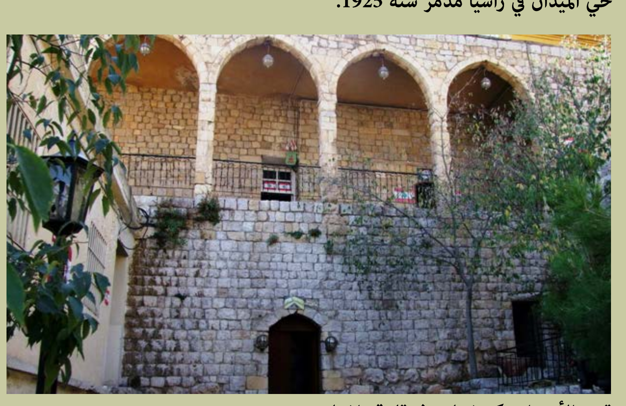

الأقبية الصليبية السفلى.


القلعة كما بدت من باحتها الخارجية.


التقاط صور تذكارية داخل القلعة.


حي الميدان في راشيا مدمر سنة 1925.


برج القلعة.


قصر الأمير ابوبكر شهاب في قلعة راشيا.


عقود صليبية.